بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وأصحابه أجمعين

المقدمة

نزفّ إلى المهتمّين بالأدب الأندلسيّ شعره ونثره خبراً سارّاً مفاده العثور على مخطوطة صغيرة الحجم كبيرة القيمة لقصيدة مطوّلة شهيرة ، أتت عوادي الزمن على أكثرها فتمزّقت أوصالها بين المصادر ولم يبق منها إلا أقلّ من ربعها ؛ إنها القصيدة الرائيّة في الآداب والسنّة للشاعر الكاتب الوزير الأندلسيّ الشهير أبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيريّ المتوفّى سنة أربع وتسعين وثلاثمئة للهجرة ، فإلى وقت قريب كانت هذه المخطوطة تعدّ في حكم المفقود فلم ترد كاملة في جميع الدراسات الحديثة والمصادر القديمة ، ولم يعلم بوجود نسختها الفريدة الموثّقة أحد من المهتمّين بالتراث العربيّ عامّة والأندلسيّ خاصّة ، وهي بذلك تعدّ إضافة مهمّة إلى المصادر الشعريّة الأندلسيّة ، فلم تزل دواوين الشعر الأندلسيّ المطبوعة قليلة جدّاً بالقياس إلى دواوين الشعر المشرقي المطبوعة ، وبالنظر إلى ما كان في الأندلس من ازدهار شعري كبير .

ومن المعلوم أنه لم تصل إلينا مخطوطات لدواوين الشعر الأندلسيّ في القرون الأوائل حتى نهاية القرن الرابع الهجريّ سوى مخطوطة ديوان يتيم فريد لابن درّاج القسطلّي ، ومن ثَمَّ فإن مخطوطة قصيدة أبي مروان الجزيريّ الرائيّة التي تعدّ ديواناً بذاتها هي الديوان الشعريّ الثاني الذي وصل إلينا من دواوين شعر هذه المرحلة المتقدمة ، وإنّ كل أثر شعري يعود إلى هذه المرحلة ويجد طريقه إلى الوجود يعدّ كنزاً ثميناً لا يقدّر ، إذ يغدو وثيقة فنّيّة تجلو جانباً من صورة الأدب الأندلسيّ التي لم تكتمل بعد ، وتضيف ملامح جديدة إليها ،

فليس الشعر الأندلسيّ هو شعر الطبيعة فحسب ولا تقتصر أعلامه على ابن زيدون وابن حمديس وابن خفاجة بل إن هناك المئات من الشعراء الفحول ، فالشعر الأندلسيّ هو نتاج ثمانية قرون طوال ممتدة على تلك الجزيرة التي هي ليست مجرد بستان من الورد والرياحين بل ثمة الجبال والقفار الجرد ، ولم يصوّر شعر الأندلسيّين الجانب الضاحك المشرق من الحياة فحسب بل صوّر جميع جوانب الحياة من باسم وعابس وضاحك وباك وماجن وزاهد وما إلى ذلك .

وها نحن أولاء بنشرنا لقصيدة الجزيريّ الرائية المطوّلة نقدّم نموذجاً جميلاً للقصائد التعليميّة والدينيّة ، فهي موشّحة بحنين عابق ، مسكونة بالأشواق الخضر إلى الأهل والأحبّة ، ممزوجة بالاعتذار إلى الممدوح ، مرفّلة بالابتهال إلى الله تعالى ليخلّصه ممّا أصابه من ضيق ومشقّة في معتقل قلعة طرطوشة المنيعة ، فكان له ما أراد بهذه القصيدة ، إذ أثمرت بالإفراج عنه وردّه إلى أهله وأحبته ، وإعادته إلى ما كان عليه من الكتابة والوزارة .

ولم نقتصر على تحقيق هذه القصيدة المطوّلة بل حاولنا تقصّي أدبه ـ شعراً ونثراً ـ وجمعه ، ولاسيّما أنه كان لسان الحاجب المنصور وكاتبه الأول ، فوجدنا فيه أديباً متنوع الأغراض متعدد الفنون ، حقيقاً بأن ينشر ذكره ، جديراً بأن يخلّد شعره ونثره .

أديبنا أحد كبار كتّاب القرن الرابع الهجري وشعرائه ، ذلك القرن الذي بلغت فيه الأندلس أوج قوّتها العسكريّة والذي شهد نهضة أدبيّة هائلة ، لذلك فقد بدأنا بتمهيد تاريخيّ موجز وقفنا فيه على الأحداث التي شارك فيها الجزيري بطريقة مباشرة أو غير مباشرة أو كانت تؤرّخ خبراً من أخباره ، وعرضنا في أثنائها لأمور اجتماعية يسيرة مما يوضح بعض الأحداث ولاسيما أن عناصر غير عربية كان لها آثار في السياسة ، وأشرنا إشارة خاطفة إلى ازدهار الحياة الثقافية وكثرة الأدباء حتى يكتمل الفرش التمهيدي ويتمّ الإطار العامّ لأحداث حياته .

ثم شرعنا في رسم لوحة كاملة لحياة الجزيريّ الأديب الكاتب الشاعر ـ هي الأولى فيما نعلم ـ فبدأنا بتعريف موطنه الذي نسب إليه ، ثم بتفصيل اسمه

ونسبه والاختلاف فيه بين « الجزيري » أو « ابن الجزيري » ، ثم عرّجنا على زمان مولده ومكانه ، ومن ثَمَّ على ذكر أسرته التي أهملت ذكرها المصادر والمراجع قديمها وحديثها ، ثمّ فصّلنا القول في حياته ، فجمعنا هيكلها مما تناثر من أخباره وأشعاره وبدأنا بنشأته وحياته الأولى ثم حياته في عهد الحاجب المنصور التي تشمل أهم أحداث حياته ومعظمها .

فالشاعر الكاتب الجزيري أحد أهم الأدباء والوزراء الذين كانوا في بلاط الحاجب المنصور يحلّون حيث حلّ ويرحلون حيث يرحل ، يحضرون مجالسه الخاصّة ، ويرافقونه في غزواته الكثيرة ، بلغ هذه المرتبة الباسقة بما يمتلكه من مؤهلات أدبيّة ، وبحسن اصطياده للفرص ، ولباقته وكياسته ، وبداهته المتوقّدة الحاضرة ، وقدرته على التعبير عمّا يطلب منه وتسويغ ما يسأل تسويغه .

وفي حياة أديبنا الجزيري حوادث جمّة جعلت قصة حياته ذات أبعاد « درامية » كما يقولون أهمها : دخوله السجن غير مرّة في عهد الحاجب المنصور ، ونفيه إلى معتقل خارج قرطبة ما يزيد على ثلاث سنوات ، وفيه ترك لنا أجمل أشعاره وأطولها ؛ قصيدته الرائيّة الشهيرة ، ثم سجنه في عهد المظفر بن الحاجب المنصور وقتله في السجن لسعيه في محاولة لتغيير نظام الحكم .

وقد حاولنا ترتيب الأحداث تاريخياً ومناقشة الأخبار بقسط وموضوعيّة ، فثمة أوهام جسام علقت في ترجمته ونسبة بعض أشعاره لدى كل من القدماء والمحدثين ، حاولنا تمحيصها وتنخّلها حتى تخلّصت ترجمته من الأخطاء والأوهام .

وفي القسم الثاني من التقديم عُجنا على أدبه نثراً فشعراً ، فأبرزنا مكانته الأدبيّة ، وعرضنا آراء النقاد بأدبه وإعجابهم به وتقديرهم لبديهته ، وبيّنّا أنه كان يعرف بالكاتب الناثر أكثر من الشاعر ، وأشرنا إلى ما كان له من رسائل ، وجمعنا ما تبقّى من نثره الفنّي ، ثم عرضنا لشعره وثناء النقاد عليه ، وكثرته وضياع أغلبه ، وتوثيقه ، وأغراض شعره المتبقّي ، ومستواه الفنّي في

ملاحظات نقدية لا تزعم أنها دراسة بل هي أقرب إلى التقديم ، لضياع أكثر شعره ونثره ، واقتصار غرض التمهيد على التعريف بالشاعر والتنويه بأدبه ، وإحياء ديوان شعري يضم قصيدة فريدة من نوعها ، هي القصيدة الرائيّة التي تبلغ وحدها تسعة عشر ومئتي بيت من الشعر ، وقد خصصنا لها حيّزاً من التعريف ، شمل ماهيّتها ، ومدحها ومعارضتها ، وشرحها ، ورواتها وشهرتها ، والمراجع والمصادر التي ذكرتها ، وأخيراً ، عرّفنا بالمخطوطة الفريدة لها ، وذكرنا سماعاتها وإجازاتها .

ولقد عددنا مخطوطة القصيدة الرائيّة إحدى المصادر التي حوت شعر الجزيريّ ، فأدرجناها بين ما جمعنا من شعره الذي رتّبناه وفق القواعد المعروفة بحسب حروف الهجاء ، وقد قمنا بشرحه والتعليق عليه على نحو موسّع يراعي الشريحة التي وجّه نحوها ، من دون إغفال كونه كتاباً صغيراً لطيف الحجم جمّ الفائدة .

وبعد ؛ فنرجو من الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يكون عملنا هذا خالصاً لوجهه الأكرم ، وأن يكون إحياء للتراث العربيّ الأندلسيّ الأصيل ، ومجده الأثيل .

والله الموفّق

دمشق ٨/ ٩/ ١٩٩٤

د . أحمد عبد القادر صلاحية

أبو شراع